بسم الله الرحمٰن الرحيم

لماذا الأخلاق أثقل الحسنات في ميزان العبد؟

من البدهي جدًّا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وقوله: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق».

لأن الأخلاق، بمعنى: كف النفس عن الأذى وبذل الإحسان على سبيل المداومة والاستمرار لا على سبيل العمل العارض، أمر في غاية من المشقة والثقل، ولا يمكن أن يتحقق -بعد توفيق الله- إلا برغبة صادقة في تحقيق الإيمان ولوازمه بصدق، والرغبة في إرضاء الرب بمعاملة خلقه.

فصاحب الخلق الحسن بشر تؤذيه الكلمة السيئة والسلوك غير الموزون والمعاملة غير العادلة، لكنه وطّن نفسه على التدين بالخلق الحسن تقوى لله ورغبة فيما عنده.

لذلك يذكر الله الخلق الحسن مع أخص صفات المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وانظر هنا تركيزًا على قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، وقوله: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

فتبين لك الأولى أنهم يتأذون ويتضررون من المعاملة السيئة أو المعتدية، فيقع في نفوسهم (غيظ) وهو غضب مكتوم لم يلمهم الله على وجوده، لكنه وصفهم بأنهم يكتمونه فلا يظهرونه لا قولًا ولا فعلًا، وليس له أثر في حبهم لإخوانهم؛ لأنهم راغبون في الله وما عنده، ولأنهم عالمون أن البشرية -وهم منها- موضع نقص وخطأ، فلا بد من سلوك الصبر في التعامل لتجاوز ذلك، ليس فقط بسلام ولكن بإحسان.

أما دلالة ذكر (الضراء والسراء) فهي دليل على المداومة على حسن الخلق في كل الأزمان والظروف، إلا ما قد يطرأ بغفلة أو نزغة من الشيطان، خاصة عند وجود ما يستثير النفس من التعدي، لذلك قال الله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

طبعًا، وذلك مع قرنها بـ(الإنفاق)، مع دلالة اسم الفاعل (الكاظمين) على لزوم الصفة ودوامها.

وصحيح أن هناك أسبابًا تسهل وتيسر مهمة الأخلاق الشريفة كالمعدن والبيئة وتيسر سبل العيش، لكن الرهان الأكبر والمعول الأعظم بعد الله على استحضار أن كل تعامل وكل كلمة وكل مقصد يحاسب عليه العبد مثلما يحاسب على الطاعة والمعصية أو أشد.

فالقلب السليم وما قاربه يثمر الثمار الصالحة الصحيحة، والقلب المريض بالتدسية والخيانة والغش وحظوظ النفس يثمر السلوك الظالم والبغي والعدوان.

ألا ترى أنه كلما قربت الدائرة من الإنسان تجلّت حقيقته؟ لأن القريب جدًّا تضمحل معه إرادات التصنع والتمثيل والتكلف خاصة مع طول الخلطة، وتضمن معه العلاقة وتنبسط معه النفس في طغيانها وتظهر حقائقها.

فهنا ابحث عن الرحمة والكرم وحسن الخلق، ولا تبحثه مع البعيد الذي يرتبط به سمعة أو مصلحة، فهناك يندفع الإنسان إلى الأخلاق الصناعية المتكلفة التي لا يصاحبها في الباطن إرادة نصح وخير صادقة.

وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذا الباب أكثر انظره في العلاقة العدائية التي يوجبها الإيمان وتحتمها السنة.

فتجد الصادق المخلص المتبع يجاهد من يظهرون الباطل وينكر عليهم مع قلة من الأنصار والأعوان بعلم وعدل ونية طيبة؛ لأنه:

- يريد وجه الله.
- ويريد حماية الإسلام الحق.
- ويريد نصح المسلمين.
- ويريد هداية من يجاهده ويقاومه إلى الحق الذي أضل طريقه.

أما الخائن لخلق الاعتقاد الحسن وشروط الإيمان الصادق في العداء فتجده غليظًا فجًّا خشنًا على غير هدى، يشفي أمراض قلبه بالجهاد، ويستعمل الحق آلة لخدمة هواه والتنفيس عن أحقاده، عياذًا بالله.

وهذا النوع من أشد الناس ضررًا على الحق وإن تظاهروا به وزعموا أنهم يخدمونه؛ لأنهم بضعف العدل وبسلاطة اللسان يشوهون دعوة الحق وينفّرون منها، ويساعدون من حيث لا يعلمون أهل الباطل والهوى على أغراضهم.

وإن أعظم تشويه وتلاعب غزيت به الأخلاق هو غزو المنحرفين الذين يتاجرون بالأخلاق الصورية واللفظية والشكلية والصناعية؛ من التبسم والذكر والدعاء وتكلّف إظهار لين جلد الحية المصطنع وتقمص الانكسار والطيبة

ونحو ذلك، فإذا وقع بينك وبين أحدهم خلاف سائغ أو مذموم كشر عن أنياب سوء خلقه وضيق صدره، وتجلى الوجه الحقيقي الذي يحاول إخفاءه.

بينما تعجب عند تتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم فتجد أشرف وأرقى أمثلة حسن الخلق مع من يعاديه ويؤذيه، مع قيامه بحق الله فيهم من جهادهم وقتالهم والإنكار عليهم.

فالأخلاق الحقة تنبع من الاعتقاد الصادق وتلزم منه، وإن كان التقصير والنقص شامل لكل البشر إلا من عصم الله.

والحكم بحسن الخلق ليس هو حكم الإنسان على نفسه إنما حكم الناس العارفين به، كما قال النبي ﷺ للرجل الذي سأله: كيف لي أن أعلم إذا أحسنتُ؟ قال: «إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنتَ. فقد أحسنت».

فليس حسن الخلق ادعاء يدعيه الإنسان مع إظهار بعض العلامات، والصدر يعتمل فيه من الحرج وطبائع السوء ما لو حصل خلاف مادي أو ديني تفجرت مكانز السوء لفظًا وسلوكًا!

إن أعظم الجهاد كما قال النبي ﷺ: «جهاد النفس»، وأعظم جهاد النفس هو في تقويم سلوكها وأخلاقها، فيأمن الناس من شره وقد يرجون خيره.

فهنيئًا لمن ثقّل موازين حسناته بالعدل وحسن الخلق، لا بالتكثير اللفظي بالذكر والتلاوة.

كتبه: الشيخ أحمد السبيعي حفظه الله

الجمعة 8 ذو الحجة 1445هـ

الموافق 2024/6/14م